

الإنسان وخلود الأعمال؛ كيف تتجاوزُ الباقيات الصالحات حدود الزمن

الباقيات الصالحات؛ قراءة تحليلية في منطق دوام الفعل ضمن الرؤية التوحيدية

لنتخيّل شخصًا قام قبل سنوات طويلة، وفي أحد أحياء المدينة، بزرع شجرة من دون أي دافعٍ استعراضي أو نيةٍ لإبراز الذات. آنذاك، لم يكن هذا السلوك يبدو أكثر من مبادرة بيئية محدودة؛ غير أنّ تعاقب الزمن كشف عن تحوّل تلك الشجرة إلى عنصرٍ مؤثر في حياة الآخرين: يستفيد المارّة من ظلّها، ويصبح الهواء المحيط بها أنقى، وتتشكّل بيئة أكثر توازنًا وصحة. والمثير للتأمل أنّ هذا الأثر يستمرّ بمعزلٍ عن وجود الفاعل نفسه، بل حتى بعد انقطاع حياته. يُحيلنا هذا المثال البسيط إلى إشكالية أعمق: هل يُختزل فعل الإنسان في لحظة حدوثه، أم أنّه قادر على أن يمتدّ وجوديًا متجاوزًا زمن الإنجاز؟ وبعبارة أخرى، هل العلاقة بين الإنسان وأثر فعله أو حصيلته تقتصر على الصلة الآنية بين الفاعل والفعل، أم أنّها تتخذ بعدًا أبعد من ذلك؟ الواقع أنّ كثيرًا من الأفعال الإنسانية تفقد أثرها بانتهائها، غير أنّ التجربة المعاشة تشير إلى وجود نمطٍ مغاير من الأفعال التي تدخل في مسارٍ من التأثير المتواصل. هذا النوع من الأفعال لا يظل حاضرا في البنية الاجتماعية والثقافية فحسب، بل يحظى أيضًا بمكانة خاصة في التصور الديني. ومن هنا يبرز مفهوم «الباقيات الصالحات» بوصفه تعبيرًا دقيقًا عن هذا الصنف من الأعمال؛ أعمالٌ تتجاوز حدود الفعل الفردي لتتحوّل إلى رصيدٍ دائم في حياة الإنسان. في هذا السياق، لا يعود العمل مجرد ممارسة أخلاقية عابرة، بل يصبح جزءًا من البنية التي تحفظ للوجود الإنساني معناه واستمراره.

وتسعى هذه المقالة، اعتمادًا على النصوص الحديثة وتحليلها عقليًا، إلى دراسة طبيعة العلاقة بين الإنسان وآثار أفعاله المستدامة، وبيان الكيفية التي تكتسب بها بعض الأفعال قدرةً على تجاوز الزمن واستمرار التأثير، لكونها تستجيب لحاجات الإنسان الأساسية.

معنى امتداد الفعل في الرؤية التوحيدية

في المنظومة الفكرية التوحيدية، لا يُنظر إلى عمل الإنسان بوصفه مجرد فعلٍ عابرٍ ومؤقتٍ، أو استجابة ظرفية تنقضي بانقضائها، بل يُنظر إليه باعتباره فعلًا ذا حضور وجودي وأثر متجاوز للحظة صدوره. فكل عمل، إلى

جانب تحققه الآني، ينطوي على قابلية كامنة للتأثير في المستقبل. ومن هنا يتجلى الفرق العميق بين الرؤية التوحيدية للعمل، وبين القراءات الأخلاقية أو الاجتماعية التي تحصره في حدوده الزمنية المباشرة. أما في الرؤى غير التوحيدية، فيُفهم العمل غالبًا بوصفه سلوكًا فرديًا ذا نتائج محدودة المدى؛ بينما يُدرج العمل، في المنطق التوحيدي، ضمن شبكة متصلة من العلل والآثار، تتجاوز زمن الفعل نفسه. وبصياغة أدق، يدخل فعل الإنسان في هذا الإطار ضمن نظام السببية الإلهية، الأمر الذي يمنحه قابلية البقاء والاستمرار. والأساس في هذا الفهم أن استمرار العمل لا يرتبط ببقاء الفاعل جسديًا؛ فالممتد ليس الشخص، بل أثر فعله. ذلك الأثر الذي يتغلغل في بنية حياة الآخرين، أو يسهم في توجيه مسارات نموهم وهدايتهم. ومن ثم، فإن معيار الامتداد لا يُقاس بطول العمر، بل بمقدار اتصال العمل بالحاجات الإنسانية الثابتة والدائمة. ومن الزاوية التوحيدية، يمتلك الإنسان القدرة على صناعة سلسلة متتابعة من الآثار. فإذا أُنجز الفعل على نحو يسمح بتجدد الانتفاع به، تجاوز إطاره الفردي، وانتقل إلى المجالين الاجتماعي والتاريخي. وعند هذه النقطة يكتسب العمل بعده الحضاري، ويغدو قابلًا للفهم ضمن مفهوم الباقيات الصالحات. إلى جانب ذلك، فإن امتداد العمل في الرؤية التوحيدية يضيف على مسؤوليّة الإنسان معنى وعمقًا جديدين؛ إذ لا يُساءل الإنسان عن مجرد إتيان الفعل فحسب، بل عن نتائجه المتوقعة والقابلة للاستشراف أيضًا. وبهذا تصبح العقلانية، واستشراف المستقبل، وتقويم الآثار بعيدة المدى، عناصر لا تنفصل عن الأخلاق العملية. وفي الختام، يمكن القول إنّ الرؤية التوحيدية، من خلال إعادة تعريف العلاقة بين الإنسان وعمله، تفتح أفقًا يتجاوز منطق الثواب الآني؛ أفقًا يبلغ فيه العمل الصالح تمامه عندما يستطيع الاستمرار في حياة الآخرين، ويغدو جزءًا من التيار الدائم للخير في الوجود.

الإطار النظري لمسألة الباقيات الصالحات

وفقًا لرواية مروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يُشار إلى سبعة عوامل محددة يستمر تدوين ثوابها للإنسان حتى بعد وفاته:

«سَبْعَةُ أَسْبَابٍ يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ ثَوَابُهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ: رَجُلٌ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ حَفَرَ بئرًا، أَوْ أَجَزَى نَهْرًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ كَتَبَ مِصْحَفًا، أَوْ وَرَثَ عِلْمًا، أَوْ حَلَفَ وَلَدًا صَالِحًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ»^١ وليس وجه الأهمية في هذا الحديث مجرد تعدد هذه المصاديق، بل في المنطق العميق الذي يجمعها في نسق واحد.

وأولى النقاط الجديرة بالتأمل هي عبارة: «يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ ثَوَابُهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ». فهي تُظهر بوضوح أن معيار استمرار الثواب ليس الحياة الجسدية للإنسان، بل حياة أثر العمل. وبهذا يقرّر الحديث أصلًا أساسًا، مفاده أن رابطة ما تظل قائمة بين الفعل وفاعله حتى بعد الموت، شريطة أن يتصف العمل بخصائص بعينها.

أما النقطة الثانية، فتتعلق بعمومية المخاطب في الحديث. فلفظ «رجل» في هذه الرواية يُستعمل بمعنى الإنسان، ولا يختص بجنس دون آخر. وهذا يكشف أن القاعدة المطروحة قانون إنساني عام، لا حكمًا محصورًا في فئة مخصوصة. ومن ثمّ، فإن الإطار النظري للحديث قابل للتعميم على جميع البشر وفي كل الأزمنة. وتتمثل النقطة الثالثة في الطبيعة الرمزية للمصاديق المذكورة. فالشجرة، والبئر، والنهر، والمسجد، والكتاب، والعلم، والولد الصالح — كلها تمثّل مجالات جوهرية في حياة الإنسان: الحياة، والبقاء، والهداية، والوعي، واستمرار النسل. والحديث، بدل الغوص في تفاصيل مصاديق متغيرة، يشير إلى أصول ثابتة، ما يدل على أن غايته ليست حصر الباقيات الصالحات في أفعال معدودة، بل تقديم نموذج تحليلي يُهتدى به في تشخيص الأعمال الخالدة.

وبناءً على هذا النموذج، فإن كل عمل قادر على تلبية الحاجات الإنسانية الحقيقية على نحو مستدام، ويتيح للآخرين الانتفاع المتكرر به، يندرج ضمن منطق الحديث. وعليه، فإن الحديث النبوي لا يقتصر على كونه سندًا نقليًا للمسألة، بل يقدّم إطارًا نظريًا لفهم العلاقة بين الإنسان وعمله واستمرار أثره؛ إطارًا يُعتمد أساسًا للتحليل العقلي للمصاديق في سياق البحث اللاحق.

التحليل المفهومي للمصاديق السبعة

تبدو المصاديق التي وردت في الحديث النبوي بوصفها عوامل لاستمرار الثواب بعد وفاة الإنسان _ للوهلة الأولى _ متنوعة وغير متجانسة؛ من غرس الشجر وحفر الآبار، إلى تعليم العلم وتربية الولد الصالح. غير أن

^١ تنبيه الخواطر و نزهه النواظر، ج ٢، ص ١١٠

التحليل المفهومي لهذه الأمثلة يكشف أنها جميعًا قابلة للفهم في إطار منطق واحد جامع، وهو منطق الاستجابة المستدامة للحاجات الإنسانية الأساسية.

فالشجرة، والبئر، والنهر، ترتبط مباشرة بالبُعد الحيوي وبقاء الإنسان، إذ تهيئ شروط حياة أصلح، وتدعم استمرار الوجود البشري. أما المسجد، بوصفه رمزًا لموضع العبادة، فيلبّي حاجة الإنسان إلى الهداية والاتصال بما هو متعالٍ. ويعزّز الكتاب والعلم البعد المعرفي والعقلي للإنسان، في حين يضمن الولد الصالح استمرار القيم الأخلاقية والإيمانية عبر تعاقب الأجيال. ومن ثمّ، لا ينبغي النظر إلى هذه المصاديق باعتبارها قائمة مغلفة، بل بوصفها نماذج دالّة على مجالات التأثير الأساسية للإنسان في حياة الآخرين.

القاسم المشترك بين جميع المصاديق السبعة هو أن ثمرتها لا تنحصر في الانتفاع الشخصي للفاعل. فهي أفعال تُنشئ بُنى تحتية تتيح للآخرين الاستفادة منها مرارًا وتكرارًا. وهنا يتجاوز العمل حدود المنفعة الفردية ليغدو خدمةً عامة. وهذه السمة تمثّل معيارًا حاسمًا في التمييز بين الأعمال الباقية والأعمال الزائلة؛ فكلما اتّسعت دائرة انتفاع الناس من عملٍ ما، وكان أثره أرسخ وأدوم، ازدادت قابليته للاندراج في نطاق الباقيات الصالحات.

ومن النقاط الأساسية في فهم هذا الحديث، الالتفات إلى السياق التاريخي لصدوره؛ فمصاديق كالنخلة، والبئر، والنهر، طُرحت بما ينسجم مع حاجات المجتمع آنذاك. غير أن المنطق الحاكم لها لا يظلّ حبيس تلك الظروف. ففي العالم المعاصر، تغيّرت أشكال تلبية الحاجات الإنسانية؛ فأصبح الإسهام في توفير المياه الصالحة للشرب، وتطوير التعليم العام، وإنتاج المعرفة النافعة، وبناء البيئات الثقافية السليمة، يقوم بالدور ذاته الذي أدّاه حفر الآبار أو تأليف الكتب في الأزمنة السابقة. ووفق هذا الفهم، فإن الباقيات الصالحات ليست مفهومًا جامدًا، بل تمتلك قابلية عقلانية للتكيّف مع التحولات الاجتماعية.

دور النية والتصميم الواعي للعمل

على الرغم من أهميّة نوع العمل، إلّا أنّه ليس كافيًا وحده؛ فالذي يمنح الفعل قابليّة البقاء هو اجتماع مصداق مناسب مع النية الصحيحة والتصميم الواعي. فالعمل الذي يُؤدّي من دون الالتفات إلى آثاره، حتّى وإن بدا في ظاهره خيرًا، لا يدخل بالضرورة في دائرة الأثر المستدام. وفي المنطق الديني، فإنّ النية المتوجّهة إلى

الخدمة المستمرة والنظرة الاستشرافية للمستقبل، ترفع العمل من مستوى استجابات ظرفية إلى مرتبة أرقى. ومن هذا المنظور، فإن الباقيات الصالحات هي ثمرة اقتران النية الإلهية بالعقلانية العملية.

الولد الصالح؛ مثال من الباقيات الصالحات

من بين المصاديق المطروحة، يحتلّ الولد الصالح موقعًا متميزًا؛ إذ إنّه، بخلاف سائر نقاط يغلب عليها الطابع النبوي، يُعدّ فاعلاً حيّاً مستقلاً. فتربية مثل هذا الإنسان تعني إيجاد مصدرٍ مستقبليّ للفعل الأخلاقي والإيماني. يُظهر هذا المصداق أنّ دوام الأثر لا يقتصر بالضرورة على تشييد البنى أو إنتاج الأدوات، بل إنّ صناعة الإنسان تمثل أعمق وأعقد أشكال الباقيات الصالحات.

صعوبة وتكلفة الأعمال الخالدة

إنّ أعمال ذات أثر باقٍ ودائم تكون غالباً ما مقرونة بالكلفة، وبالصبر، وأحياناً بعدم الالتفات أو التقدير. فهي، بخلاف الأفعال السريعة العائد، لا تمنح فاعلها ربّحاً فورياً أو نفْعاً عاجلاً. وهذه السمة بالذات هي التي تضيف عليها قيمة تربوية وأخلاقية رفيعة.

ويمكن القول إنّ مشقّة تحقّق الباقيات الصالحات تُعدّ أحد أسباب المكانة الخاصة التي تحظى بها في نظام الثواب الإلهي؛ إذ إنّ هذه الأعمال لا تنبع من اندفاع عاطفي أو مصلحة آنية، بل تقوم على اختيار واعٍ والتزام طويل الأمد.

التمييز بين العمل الخير المؤقت والأثر الدائم

ليس كل عمل صالح بالضرورة عملاً باقياً. فالفرق الأساسي بين الخير المؤقت والأثر المستدام يكمن في قابليته لاستمرار انتفاع الآخرين به. والعمل الذي يُثمر مرة واحدة لا يستوي، من حيث مرتبته الوجودية، مع عملٍ يتجدّد أثره مراراً وتكراراً. هذا التمييز يشكّل معياراً واضحاً للتفريق بين الباقيات الصالحات وسائر الأعمال الحسنة، كما يوجّه نظر الإنسان من مجرد كمّ العمل إلى نوعية أثره وعمقه.

ما يُستفاد من مجموع المباحث المتقدّمة هو أنّ الإنسان، في المنطق التوحيدي، لا يُعرّف ضمن حدود زمنه البيولوجي فحسب؛ بل يمكن لعمله أن يُصمّم على نحو يتجاوز عمره الفردي ويستمرّ في بنية حياة الآخرين.

ومن هذا المنظور، لا يُعدّ العمل مجرد فعلٍ أخلاقي أو اجتماعي، بل يصبح جزءًا من الهوية الوجودية للإنسان ومن كَيْفِيَّةِ حضوره في العالم.

وقد أظهر تحليل الحديث النبوي والمصاديق الواردة فيه أنّ دوام الأثر لا يتوقّف على الشكل الظاهري للعمل، بل يرتبط بمنطقه الداخلي. فكلّ عملٍ قادرٍ على تلبية الحاجات الإنسانية الأساسية بصورةٍ مستدامة، ويوفّر إمكانيّة انتفاعٍ متكرّرٍ للآخرين، يمتلك قابليّة البقاء. وتُتيح هذه القاعدة إمكانيّة التعميم العقلي للمصاديق في مختلف الأزمنة والظروف التاريخية، وتُبيّن أنّ مفهوم الباقيات الصالحات غير محصور في قوالب معيّنة أو مرحلةٍ خاصّة.

ومن جهةٍ أخرى، فإنّ هذه الرؤية ترفع مسؤوليّة الإنسان من مجرد الإتيان بأفعالٍ خيريّةٍ عابرة، إلى مستوى التأمل في الآثار بعيدة المدى لاختياراته. وضمن هذا الإطار، تؤدّي النية الخالصة، والعقلانيّة العمليّة، واستشراف المستقبل، والاهتمام بالأثر الاجتماعي للعمل، أدوارًا حاسمة في تشكّل الأعمال الخالدة.

وفي الختام، يمكن القول إنّ الإنسان، وفق هذا المنطق، كائنٌ يمتلك إمكانيّة «الاستثمار الوجودي»؛ استثمارٍ لا يؤثّر في حياة الآخرين فحسب، بل يحدّد أيضًا علاقته بمستقبله الأخرى. إنّ مثل هذه النظرة ترتقي بالعمل الصالح من مستوى الواجب الفردي إلى مستوى المشاركة الواعية في التيّار الدائم للخير في الوجود، وتفتح أمام المتلقّي أفقًا أعمق لمعنى المسؤوليّة الإنسانية ودلالاتها.